تاريخ المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء
إلى غاية القرن 19

احمد بوزيدي

مدخل عام:

ارتبط المغرب تاريخيا بالمشرق وبالأندلس، كما ارتبط في الآن ذاته ببلاد السودان التي شكلت عمقا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وهو ما حقق تفاعلا حضاريا ارتسمت معالمه منذ انتشار الإسلام في بلاد المغرب وانسيابه جنوبا. هذا ما جعل عبد الله العروي يقول إننا نجد الدليل على أهمية روابط المغرب بإفريقيا في كل صفحة من صفحات التاريخ المغربي؛ نجدها إيجابية وسلبية، بمعنى أننا نلمح آثارها في قوة الدول وانبساطها وفي ضعفها وانحطاطها، إلى حد يجوز الحديث عن أن المغرب يعلو ويرتفع بتدعيم وترسيخ روابطه بإفريقيا ويهبط وينحدر بضمور تلك الروابط وانحلالها وضياعها[1].

ويردف العروي بأن فهم روابط المغرب بالبلاد الإفريقية جزء من مشروع فهم أنفسنا وليس مشروعا ظرفيا وليد اندفاعات وقتية عابرة، بل هو مشروع مرسوم في هياكل وبنيات كياننا المغربي، وبقدر ما الكشف عن حقيقة الروابط مع إفريقيا مرسوم في ماضينا بقدر ما يكون التعاون معها مُضَمَّنٌ في مستقبلنا[2].

يتشكل المجال المدروس من وحدات طبيعية متنوعة، وهنا نجد التقسيم الذي درج عليه بعض المؤرخين (موني Mauny – بوڤيل Bovill – الشكري...) بالحديث عن ثلاث وحدات كبرى: شمال إفريقيا، ثم إفريقيا الاستوائية، ثم الصحراء الإفريقية التي تمثل عائقا طبيعيا بين القسمين، وإن كان هذا العائق لا يعني أن الاتصال بين الشمال والجنوب كان منعدما بل نجد أن الروابط بين الضفتين قديمة وازدادت قوة في العصور الإسلامية[3].

إن اتصال إفريقيا جنوب الصحراء بالعالم الخارجي منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وإلى زمن متأخر من العصور الحديثة يكاد لا يتم إلا عن طريق بلاد المغرب، وقد مرت هذه الصلات عبر ثلاث حقب كبرى، وهي كالآتي:

- ***المرحلة الأولى***: من القرن 1هـ / 7م إلى نهاية القرن 4هـ / بداية 11م (50هـ/670م – 422هـ/1032م): اتسمت بالاحتكاك السلمي بين التجار البربر والعرب وأفارقة جنوب الصحراء، ويلاحظ أن بلاد المغرب وبلاد السودان عرفت مخاضا وأوضاعا صعبة؛ إذ انطلقت ببلاد المغرب الثورة الخارجية، وما تلاها من عصر الولاة، ثم الصراع الفاطمي العبيدي-الأموي، ثم التحرك الزناتي إلى ظهور المرابطين، أما جنوبا فتتحدث المصادر عن إمبراطورية غانا بينما يعتري تاريخ جهات أخرى الغموض.
- ***المرحلة الثانية***: من القرن 5هـ / 11م إلى 8هـ / نهاية 14م: حيث ظهر الدور العسكري المرابطي في الجنوب أولا ثم في الشمال ووقع التحام حضاري واضح المعالم، ولعل هذا الوضع هو الذي أعطى البنيات السياسية الإسلامية جنوبا، وخاصة مملكة مالي امتدادا مغاربي الملامح.
- ***المرحلة الثالثة***: من القرن 9هـ / 15م إلى بداية التغلغل الاستعماري في إفريقيا، وفي هذه المرحلة نلمس أن الروابط اعتمدت على مواصلة انتشار الإسلام جنوبا وتعمقه لدى الفئات الاجتماعية في الأرياف وتَكَوُّنِ الزعامات الدينية المحلية على الأساس الإسلامي المبني على الفهم المغربي له والمشبع بروح التصوف. كما يتميز بتراجع الروابط الاقتصادية والثقافية بين الجانبين لصالح المستعمر الغازي القادم من وراء البحار[4].

وقد تعرضت العلاقات المغربية الإفريقية منذ القرن التاسع عشر الميلادي لسلسلة من التحولات أفضت إلى محاولة الاستعمار الأوروبي عزل المغرب عن محيطه الإفريقي وربط المستعمرات الإفريقية كلِّها بالمركزية الأوروبية وفي الآن نفسه ظهرت حركات مقاومة بالغرب الإفريقي استمدت مقوماتها الروحية والدينية من المغرب وعملت على تأسيس كيانات سياسية تعمل على درء الخطر الأجنبي.

واليوم يعمل المغرب على إعادة الروابط مع عمقه الإفريقي مستفيدا من الصلات الضاربة في التاريخ والمستشرفة للمستقبل بالرغم من العوائق الاستراتيجية وحالة التنافس الإقليمي والدولي المحموم على المنطقة.

---

[1]- عبد الله العروي، علاقات المغرب بإفريقيا: ملاحظات أولية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1997، ص7.

[2]- نفسه، ص11.

[3]- هاشم العلوي القاسمي، أصول الروابط التاريخية بين بلاد المغرب وغرب إفريقيا في العصور الوسطى: استحضار أم استشراف؟، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، عدد خاص بالعلاقات المغربية الإفريقية، 1409هـ / 1989م، ص121.

[4]- نفسه، صص122-123.

أولا : قراءة تركيبية في طبيعة مصادر ومراجع تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية

يجيب المؤرخ الإفريقي كي زيربو عن التساؤل الذي طرحته بعض الجهات البحثية الأوروبية: هل لإفريقيا تاريخ؟ بالقول إن لإفريقيا تاريخها؛ فقلد انقضى الزمن الذي اعتبرت فيه هذه القارة هامشية مستعبدة، وليس ما يهم هو كتابة تاريخ إفريقيا للرد على التأريخ الاستعماري، بل تغيير المنظور والعودة إلى العلم والبحث في المنهج الكفيل بإعادة كتابة التاريخ الإفريقي[5].

وفي هذا السياق، تعتبر الدراسات الإفريقية على اختلاف اتجاهاتها وموضوعاتها من أبرز اهتمامات الباحثين على تنوع اختصاصاتهم في الوقت الراهن، وأدى هذا الاهتمام الكبير بإفريقيا إلى تحطيم نظرة بعض الجهات الأوروبية التي تَدَّعي أن القارة الإفريقية لم تكن شيئا مذكورا قبل التغلغل الاستعماري فيها[6].

ولطالما ظلت مصر بحضارات وادي النيل وشمال إفريقيا بالترسبات الحضارية المتلاحقة، موضع اعتقاد راسخ بأنها المناطق التي لها تاريخ. وكان المعتقد أن إفريقيا جنوب الصحراء ليس لها تاريخ ذا بال بل ارتبطت بتجارة العبيد والذهب في أحسن الأحوال، وأنه لم يكتب من تاريخها سوى ما دَوَّنَهُ المكتشفون والمستعمرون من أهل حوض البحر المتوسط في العصر والحديث. وبذلك، يجمع الباحثون على أن تاريخ بلاد السودان هو قبل كل شيء قضية مصادر، ذلك أن قلة المادة المصدرية، وفقرها وتحيزها وتحريفها للوقائع إن وجدت، يمثل عقبة كأداء، أرهقت المؤرخين، ودفعت الكثيرين منهم إلى الاستشهاد بكتابات متأخرة جدا[7].

غير أن هذه النظرة لا تصمد مع وجود عدد من الروايات الشفوية الإفريقية، بالإضافة إلى ما كتبه الرحالة والعلماء العرب، وقلة مما كتبه الأفارقة بأنفسهم باللغة العربية. وهذه تلقي الضوء على أحداث جرت في أجزاء من السودان بتقسيماته: الغربي والأوسط والشرقي. ومن هذا المزيج من المصادر، يمكن للباحث استخلاص تاريخ خاص بإفريقيا يخص التنظيمات القبلية والتطورات المحلية والإقليمية اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، وثقافيا ودينيا. هذه المجتمعات، وإن ظلت تواصل عمليات التطور الذاتي، فإنها في الآن نفسه تفاعلت مع مؤثرات حضارية إسلامية تلتها الهجمة الأوروبية بتنظيماتها وأجهزتها المختلفة التي عملت على إخضاع القارة الإفريقية[8].

ويقول الباحث أحمد الشكري، قد يكون صحيحا ما قاله ريموند موني R. Mauny من أن المعلومات التي حصلنا عليها من قِبَلِ الملاحين البرتغاليين قرابة نصف قرن (1450-1500م) تفوق من حيث الكم والنوع ما أفادتنا به المصادر العربية طوال ثمانية قرون (من ق7 إلى 15م). ليس لأحد أن يعترض على مثل هذه الأقوال، بيد أنها تبقى صحيحة بالنسبة للمناطق الساحلية لإفريقيا الغربية، وليس الداخلية التي لم يكتشفها الأوروبيون إلا مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي من خلال رحلاتهم المتوالية. ويكفي لندلل على هذا الواقع، أنه في الوقت الذي كانت إمبراطورية سونغاي تعرف أوج قوتها أيام الحاج أسكيا محمد (1493-1528م)، كانت الكتابات البرتغالية عن الفترة نفسها تحيلنا على حالة الفوضى السياسية والاجتماعية لدى القبائل والشعوب السودانية الساحلية، وفي نفس الوقت تحدثنا عن التجارة الصامتة داخل بلاد السودان وهو وصف يلوك ما تحدث عنه بطليموس في عصور تاريخية غابرة[9] .
إن التراكم المعرفي المتوفر حاليا حول تاريخ غرب إفريقيا، تتجاذبه ثلاثة خطابات تاريخية:
-خطاب من خارج إفريقيا وهو أوروبي أساسا.
-خطاب إفريقي.
-خطاب عربي إسلامي[10].
ولكل واحد من هؤلاء مميزات خاصة، الأول اكتسب تجربة طويلة في التعامل مع تاريخ المنطقة، وتمكن من تطوير دراساته وأبحاثه سواء على المستوى المنهجي أو الموضوعي، وذلك بفضل تمكنه النسبي من مناهج البحث، وتحقيقه تراكما كميا في الإنتاج التاريخي، ومجموع هذه المعطيات أهله لأن يحتل كرسي الريادة دون منازع[11].

أما الخطاب الإفريقي، فإنه بحكم حداثته ما يزال يتخبط في مشكل الهوية والبحث عن الذات، وقد تأخذ المسألة صبغة حادة عند بعض المؤرخين الأفارقة، فيطالبون بالرجوع إلى التقاليد الوثنية السودانية، وذلك لتأكيد تفرد الحضارة السودانية وقدرتها على العيش دون تأثير الحضارات الأخرى إسلامية كانت أو مسيحية. بيد أن المشكل لا يأخذ طابع الحدة عند

---

[5]- كي زيربو، المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، إشراف ب. أ. أوغوت، منشورات اليونيسكو، باريس، 1983م، صص19-20.

[6]- العلوي القاسمي، أصول الروابط، ص123.

[7]- أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي 1230-1430م، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1420هـ / 1999م، ص17.

[8]- نفسه، الصفحة نفسها.

[9]- نفسه، ص37.

[10]- نفسه، ص44.

[11]- نفسه، الصفحة نفسها.

الباحثين الأفارقة المسلمين والمسيحيين، حيث نجدهم معتدلين في آرائهم. ويتميز الخطاب العربي الإسلامي بكونه لا يزال يافعا، وفي بداية الأمر كان همه الدفاع عن مزاعم الأوروبيين، إلا أن عدم تخصص المؤرخين العرب في تاريخ غرب إفريقيا، وعدم إحاطتهم بالمشاكل المنهجية والموضوعية، جعل الجيل الأول منهم غير قادر على مسايرة ومناقشة نتائج الأبحاث والدراسات الأوروبية والإفريقية المتخصصتين والمتطورتين. على أن ذلك لا يمكنه أن ينسينا المجهودات الجادة التي بذلها بعض الباحثين[12].

ثانيا: الجغرافيا التاريخية لبلاد المغرب وبلاد السودان

ظهر في المصطلحات الغربية الحديثة مصطلح، اعتمده الباحثون وهو "الغرب الإسلامي L'occident Musulman"، ويَعْنُونَ به الجناح الغربي من العالم الإسلامي، ويقول عنه ليفي بروفنسال Levi Provençal بأنه ينصرف إلى مجموعة جغرافية بالغة التناسق فيما بينها، وتقع على جانبي غربي البحر المتوسط وتمتد حتى سواحل الأطلنطي وتشمل شمال إفريقيا وشبه جزيرة إيبيريا، ويتضح أنه مصطلح حضاري يوازي مصطلح "المغرب" في استخدام الجغرافيين العرب القدامى[13].

وقد أنتج مسار التطور التاريخي للغرب الإسلامي تقسيمات للشعوب التي استوطنت المنطقة، وأفرزت البنية الاجتماعية الداخلية تقسيما ثنائيا للسكان، فمنهم المستقرون في الممرات والتحصينات التي يمكن اعتبارها نواة لقيام المدن المغربية في العصر الإسلامي، وهؤلاء هم **"البَرَانِس"**. ثم مجموعات الرُّحل وهم **"البُتْر"**. وارتبط هذا التقسيم بالمؤثرات البيئية الطبيعية والنشاط اليومي للسكان والمؤثرات الناتجة عن التدخلات الخارجية في بلاد المغرب[14].

وبالتالي، تشكل النسيج الاجتماعي في بلاد المغرب من البربر، بتقسيماتهم الكبرى كما رأينا سابقا بالإضافة إلى مجموعات بشرية أخرى فَرَضَتها التحولات التي لحقت بالمنطقة؛ ونذكر من هؤلاء: العرب الوافدين عبر هجرات متلاحقة كبني هلال وسليم ومعقل وغيرهم، ثم جماعات من السود والحراطين، واليهود...
وانتشرت قبائل هوارة إلى جانب صنهاجة اللثام في الصحراء واختلطوا مع العناصر العربية الوافدة، وبذلك تشكل خليط مع البربر والعرب نتجت عنه "مثاقفة" عن طريق التجارة الصحراوية انطلاقا من القرون الهجرية الأولى بحيث اندمج العنصر العربي في اكتشاف القارة الإفريقية[15].

وفيما يتعلق ببلاد السودان، فقد تشكلت من أخلاط شتى من العناصر الزنجية القاطنة بين البحر الأحمر شرقا والبحر المحيط غربا، وبين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية في الشمال وبين نطاقات الغابات الاستوائية جنوبا، ويمكن التمييز بين هذه العناصر، فمن الشرق إلى الغرب توجد شعوب النوبة جنوب مصر، ثم زغاوة وصوصو وكوكو بالسودان الأوسط، أما السودان الغربي فقد سكنه شعب التكرور وأهل غانة المتكونين من عناصر متعددة[16]. والمعروف أن أهم القبائل التي كونت سكان مملكة غانة في العصور الوسطى هم السوننكي وهي من فروع الماندي الأساسية أي من مجموع الشعوب الناطقة بلغة الماندي. وأقام السوننكي في الصحراء، ثم انتقلوا إلى حافتها الجنوبية، وامتزجوا بالبربر والفولانيين، وهم زراع مرتبطون بالأرض، وتجار مرتبطون بالقوافل الواردة من الشمال[17].

---

[12]- الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، صص44-46.

[13]- ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت، صص9-14.

[14]- هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1415هـ / 1995م، صص234-235.

[15]- نفسه، صص240-241.

[16]- محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1406هـ / 1985م، ص279.

[17]- إبراهيم طرخان، غانة في العصور، الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، العدد 13، 1967م، صص37-38.
ومن أشهر قبائل السوننكي: سيسي، آل بكَري، سيلي، ديابي، ساخو، كابا، الدوكوري، نياخاتي، دياوارا.

خريطة رقم1: شعوب بلاد المغرب وبلاد السودان

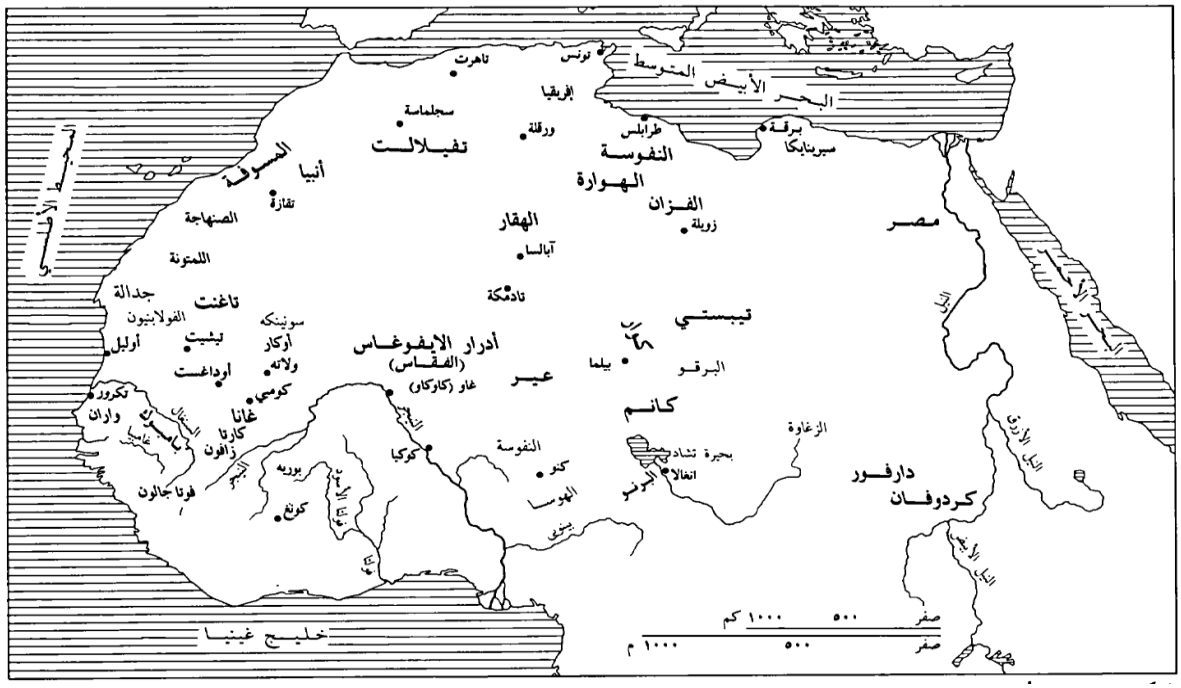

المصدر: فرانسوا دي ميديروس، شعوب السودان: تنقل السكان، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، إشراف محمد الفاسي وإ.هريك،، منشورات اليونيسكو، بيروت، الطبعة الثانية، 1997م.، ص147.

وحتى لا نجتر ذلك الاضطراب الحاصل في المصادر حول موقع وحدود "بلاد السودان" أو "بلاد التكرور"، فإننا، في الغالب سنتحدث عن العلاقات المغربية مع المجال الممتد فيما بين المحيط الأطلسي غربا وبحيرة التشاد شرقا، شمال نطاق الغابات الاستوائية، وجنوب الصحراء[18].

وأهم ملاحظات يمكننا تسجيلها في هذا الصدد:

الأولى: لا يمكن إغفال دور الصحراء التي شكلت قنطرة فعالة وصلتْ بلاد السودان بالعالم الخارجي طوال العصر الوسيط مع امتدادات آخذة في التضاؤل إلى نهاية القرن التاسع عشر، فمن خلالها وعبرها كانت تمر السلع والأفكار، قبل أن ينقلب المسار في اتجاه البحر مع بداية مرحلة الاكتشافات الجغرافية لإفريقيا وبقية الجهات المجهولة من العالم انطلاقا من نهاية القرن الخامس عشر[19].

الثانية: طغيان ظاهرة الانبساط في المنظر الطبيعي لبلاد السودان، حيث لا نجد انكسارات عميقة وواسعة، أو مرتفعات تضاريسية تحجب مناطق بلاد السودان بعضها عن بعض، وأهم المرتفعات نجدها في منطقة "الفوتا جالون Fouta Djallon"، حيث لا تتعدى أعلى قمة 1500م (جبل مالي)، وهذه المنطقة الجبلية التي توجد بالقرب من المحيط الأطلسي، كانت مهمشة سياسيا في تاريخ بلاد السودان خلال العصر الوسيط. والخلاصة التي نصل إليها، أن ظاهرة الانبساط شكلت عاملا إيجابيا في عملية التواصل بين السودانيين[20].

الثالثة: تعتبر الشبكة الهيدروغرافية أهم عنصر يكسر المنظر الطبيعي لبلاد السودان الغربي، وتتمثل أساسا في نهري السينغال والنيجر وروافدهما التي تسري تقريبا في الاتجاهات كلها. وهما معا يصبان في المحيط الأطلسي، يبلغ طول الأول 1790 كلم، أما نهر النيجر، فيصل طوله إلى حوالي 4180 كلم. وقد كان لهما دور بارز في تاريخ بلاد السودان، نظرا لصلاحيتهما للملاحة والصيد، وإمكانية استغلال مياههما في الزراعة[21].

[18]- الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، ص59.
[19]- نفسه، ص60.
[20]- نفسه، الصفحة نفسها.
[21]- نفسه، الصفحة نفسها.

ثالثا: مظاهر العلاقات بين المغرب وبلاد السودان الغربي

1- العلاقات السياسية

تميزت العلاقات السياسية بين بلاد المغرب وبلاد السودان فيما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة / الثامن والعاشر الميلادي بعقد بعض معاهدات الهدنة مع الجهات التي وصلتها جيوش الفاتحين المسلمين على مشارف الصحراء وبلاد السودان. وتعتبر المرحلة الفاصلة بين بداية الفتوحات الإسلامية وقيام الإمارات المستقلة مرحلة استكشاف متبادل بين الضفتين، انتهى بقيام علاقات سياسية واقتصادية واجتماعية تَمَتَّنَتْ على مر القرون اللاحقة. ونظرا لمتاخمة الإباضية للصحراء من جهة الجنوب ووجود سلسلة من المدن على مشارف الهگار وكوار مثل غدامس وفزان وزويلة، فإنهم كانوا كنظرائهم في سجلماسة مؤهلين لربط علاقات مع السودان[22]. وتميزت العلاقات بين الضفتين في هذه المرحلة بسمتين أساسيتين:
أولهما: وجود الحوافز السياسية والاقتصادية لدى كل الأطراف للتواصل فيما بينها.
ثانيهما: اختلاف هذا العصر عن مرحلة الفتح اختلافا جوهريا، بالتخلي عن الأسلوب العسكري، لصالح الصلات السلمية؛ وهي صلات اتخذت من الهجرات البشرية، والمبادلات التجارية، وتبادل السفارات، أداة وحيدة لها[23].

وفي القرن الخامس الهجري، وبحكم أن أودغشت كانت تحت سلطة ملك غانة الأرواحي[24]، وبما أنها كانت معقلا للخوارج، فإن المرابطين تعاملوا معها بقسوة؛ إذ قتلوا أو اسْتَرَقُّوا سكانها وقيل بأنهم خربوها، وعلى أية حال ألحق استيلاء المرابطين ضررا بالمدينة وتم التخلي عنها لصالح مدينة ولاتة. وكان تملك أودغشت إيذانا ببدء مرحلة من التوسع المرابطي في السودان الغربي[25]. وبعد أن أوغل أبو بكر بن عمر شمالا توقف على مشارف موضع بناء مدينة مراكش تاركا ابن عمه يوسف بن تاشفين في القيادة الشمالية، وعاد هو إلى الصحراء "وجمع جيوشا كثيرة، وخرج إلى غزو بلاد السودان، فجاهدهم حتى فتح بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر"[26].

ويظهر أن العلاقات لم تكن على ما يرام في العصر الموحدي في أواخر القرن 6هـ / 12م؛ فيعقوب المنصور رفض هديـة من السودان هي عبارة عن فيل. ومع أن الهدية ربما كانت من تجار السودان بعيدا عن الرسميات، فإن الرفض لم يكن سوى رد فعل ضد بعض مواقف حكام السودان؛ وهكذا فالأمير أبو الربيع سليمان والي سجلماسة وأقاليمها وَجَّهَ مذكرة إلى ملك غانا يستنكر العراقيل التي توضع أمام صغار التجار المتجهين من المغرب، ويذكره بأن اختلاف الدين بين الجانبين لا يمنع من حسن التعايش، وأن الجانب المغربي بإمكانه أن يعامل تجار السودان بالمغرب بالمثل، لكنه لا يستصوب هذا الاتجاه[27].

وشهد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي تطورات جديدة، فمن جهة، حرصت بعض مراكز القوى الشعبيـة بسوس على أن تحل محل الدولة الموحدية في مراقبة طريق غانا عبر السوس الأقصى، ومن جهة ثانية بدأ المغرب ينظـر إلى العلاقات مع السودان نظرة فيها انفتاح دبلوماسي وفكري اتسع أكثر فأكثر خلال القرن التالي. وهكـذا نشأت إمارة بني يدر بسوس، واستقدمت مجموعات بني معقل الحسانيين الذين كانوا يستوطنون حوض ملوية، وذلك بحجة وجود علاقة دم بين مؤسس هذه الإمارة وبني معقل. وابتداءً من هـذه الفترة، وبالرغم من حرص الحكومة المركزية على ضمان وحدة المغرب في مفهومه الواسع نجد الصحراء مع تبعيتها بالولاء والبيعة للسلطة المغربية أصبحت وسيطا رسميا للمغرب، لدى أقطار السودان، وذلك عن طريق كل من معقل ومسوفة؛ فمنهم الأَدِلاَّء، والموفدون الرسميون المرافقون للوفـود

---

[22]- عبد العزيز العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط: الدين والفكر، أطروحة لنيل الدكتوراه الدولة في الآداب، تخصص تاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس، السنة الجامعية، 1998-1999م، ج1، ج1، صص5-6.

[23]- نفسه، ج1، صص122-124.

[24]- الأرواحية تعني الاعتقاد في الأرواح والقوى الحيوية المحركة للكائنات الحية والأشياء وعناصر الطبيعة كالصخور والرياح والحيوان وكذلك الجن.

[25]- العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي، ج1، ص201.

[26]- علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص135.

[27]- إبراهيم حركات، طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية، مجلة دعوة الحق، العدد269 ماي – أبريل، 1988 .
(على موقع: http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/6944 بتاريخ: 2016/11/15)

المتوجهة إلـى أقطار السودان طول المدة الزمنية الفاصلة بين القرن السابع والثالث عشر الهجريين / الثالث عشر والتاسع عشر الميلاديين[28].

ويمثل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أوج نمو العلاقات بين السودان الغربي والمغرب في العصر الوسيط، بـل إن هذه الحقيقة تشمل باقي الشمال الإفريقي في تبادله مع أقطار السودان، وعندما تحكم المغرب في محور تلمسان مع السودان في عهد أبي الحسن المريني أحكم سلطان مالي منسا موسى صلاته بالعاهل المغربي وأظهر ارتياحه لبسط السلطة المغربية نفوذها على مملكة بني عبدا الواد. وتعبيرا عن حسن مشاعره، بعث أبو الحسن بهدايـا وتحف إلى معاصره المالي الذي كان ضمن وفده ترجمان صنهاجي، كما أن السلطان المغربي بعث وفدا لهـذا الغرض، وأمر بعض بني معقل من سكان الصحراء باصطحاب الجميع إلى ملك مالي، وأثناء ذلك توفي منسـا موسى فخلفه منسا سليمان وهلك هو أيضا بعد أن أعد هدايا، سودانية إلى نظيرة المغربي، فألحق بها خلفـه منسا حاطه زرافة، واستقبلها حينئذ أبو سالم في عرض رسمي وشعبي وكبير. وقد فصل ابن خلدون تبـادل الوفود والهدايا بين المغرب ومالـي[29]. وكان ابن بطوطة أبرز ممثل دبلوماسي في هذا العصر عن البلاط المغربي، ووصف بدقة مشاهداته عبر الطريق الصحراوي وخلال إقامته بمالي، وسجل حسن التعايش بين أهل هذه البلاد ومن يخالطهم من المغاربة[30].

ومنذ ظهور السعديين وقيام دولتهم، وبعد انسداد الأفق أمام المغرب في حوض البحر المتوسط وسعي العثمانيين إلى تطويقه جنوبا، سعى السعديون إلى البحث عن موارد ثابتة تساعدهم على تطوير اقتصاد دولتهم بالبحث جنوبا عن موارد كمعادن الملح بتغازى كما أحكموا قبضتهم على أقاليم توات وتيكورارين في طريق بلاد السودان[31]. وفي مطلع سنة 999هـ / 1590م، أطلق أحمد المنصور السعدي حملة السودان أملا في السيطرة على منابع تجارة الذهب والرقيق واستثمار أرض نهر النيجر في المشاريع الزراعية[32]، ويقول الفشتالي إن أرض السودان تتميز بـ: "اتساع خطة القدر والاستئثار بمعادن التبر وأصناف الرقيق"[33]، كما أنها تشتمل على "المرافق الجمة التي جاد بها كرم التربة وخصب البقعة، فقد طم بها بحر الحبوب والأقوات والأدم"[34]. ويفيدنا مصدر آخر برغبة أحمد المنصور في تسلم "خراج معدن تَغَازَ وأنه أولى به... لأنه الحاجز والمانع لهم من الكفرة النصرانيين"[35]، كما أنه يؤكد على حالة التناقض الداخلي الذي عصف ببلاط أمير مملكة سنغاي الأسكيا إسحاق بن داود، وذلك أن "ولد كرنْفُل" أحد خُدَّام الأمراء فر هاربا إلى مراكش من بطش الأسكيا، وأخذ يُحَسِّنُ للسلطان السعدي غزو السودان، ودَلَّهُ على عوراتها: "وبما كانوا عليه من الأحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة"[36].

---

[28]- إبراهيم حركات، طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية.

[29]- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط3، 1427هـ / 2006م، ج6، صص264-265.

[30]- إبراهيم حركات، طبيعة العلاقات.

[31]- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 1421هـ / 2001م، صص147-151.

[32]- نفسه، صص171-173.

[33]- الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، د.ت، ص165.

[34]- نفسه، ص118.

[35]- عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، وقف على طبعه هوداس، المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية، باريز، 1981م، ص137.

[36]- نفسه، الصفحة نفسها.

خريطة رقم2: حملة السلطان أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد السودان (1590 – 1591)

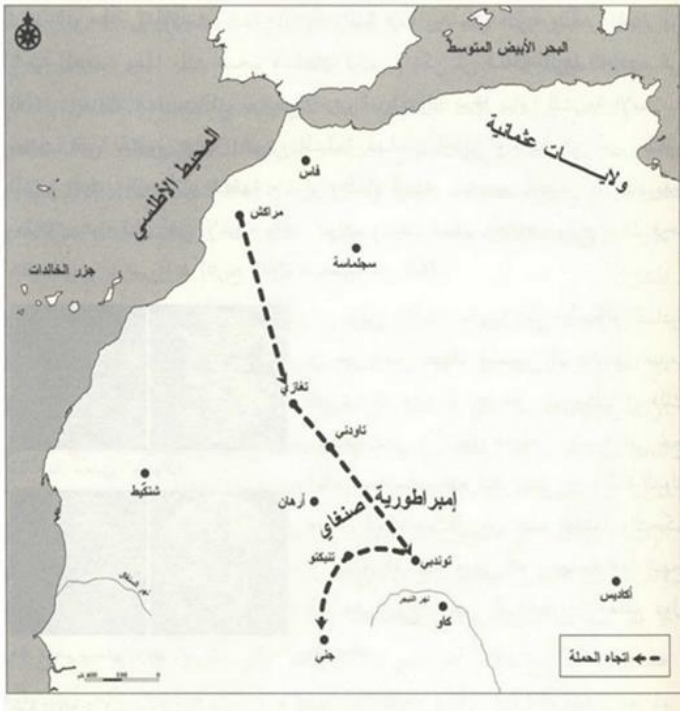

المصدر: تاريخ المغرب: تحيين وتركيب، ص389.

ولا شك أن تتبع تحركات الجيش المغربي في بلاد السودان يتيح لنا معرفة الأقاليم التي أصبحت تحت السلطة المغربية والتي تكاد تطابق الحدود الكبرى لمملكة السونغاي حيث انبنت الإدارة المغربية على رابطة البيعة للسلطان السعدي وتأسست إدارة المخزن والمِشْوَر والجيش، والقضاء والبريد، والإدارة المالية، وإدارة الأقاليم والجهات. أما السنغال غربا والكانم برنو شرقا، فارتبطتا برباط البيعة مع السلطان السعدي دون إدارة مباشرة[37].

وفي بداية الدولة العلوية، وبعد أن تمكن السلطان المولى الرشيد من القضاء على زاوية تازروالت سنة 1081هـ / 1670م في الجنوب، استطاع أن يضع يده على أهم الطرق الرابطة بين المغرب وبلاد السودان. وفي السنة نفسها أرسل مبعوثا إلى تنبكتو التي أعلنت بيعتها للعلويين. غير أن الرشيد اقتصر على أخذ البيعة من أهل السودان دون التدخل المباشر، وذلك في إطار سياسة جديدة استهدفت التركيز أكثر على بلاد شنقيط[38]، والشيء نفسه تكرر في عهد خلفه السلطان المولى إسماعيل الذي عمل على إعادة توحيد البلاد: "وكانت طاعته قد عمت جميع المغرب إلى تلمسان وجميع الصحراء وتوات وفگيگ وأطراف السودان وعلى تيغاز وسوس الأقصى"[39].

وبالنتيجة، ابتداءً من سنة 1618م، توقف المغرب عن تعيين الباشوات وعن إرسال تعزيزات عسكرية، وبقيت هناك أعداد من جيش المنصور وأبنائهم عرفوا بالأراما (أي الرماة)، فنصبوا أنفسهم على تنبكتو وظلوا على هذه الحال إلى غاية القرن الثالث عشر للهجرة / التاسع عشر للميلاد[40].

[37]- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1402هـ / 1982م، صص147-720،149.

[38] - Abitbol Michel. Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIe au début du XIXe siècle, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°30, 1980, p.8.

[39]- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، تحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992م، ص202.

[40]- م. أبيتبول، نهاية إمبراطورية الصنغاي، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الخامس، إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، إشراف ب. أ. أوغوت، منشورات اليونيسكو، لبنان، 1997م، ص350.

2- العلاقات الاقتصادية

يقول الباحث الاقتصادي المصري سمير أمين إن فهم التاريخ الاقتصادي لـ "العالم العربي" يجب أن نعيد وضعه في إطاره، باعتباره منطقة عبور وملتقى ومفترق مناطق حضارات العالم القديم؛ فهذه "المنطقة العربية" شبه الجافة تفصل بين ثلاثة أقاليم حضارية قائمة على الزراعة: أوروبا، إفريقيا السوداء، وآسيا الخصبة . وقد قامت "المنطقة العربية" بوظائف تجارية ربطت بين العوالم الزراعية التي كانت تجهل بعضها البعض. والتشكيلات الاجتماعية التي ازدهرت على أساسها هذه الحضارات كانت تشكيلات تجارية. والمقصود من ذلك أن الفائض الحاسم للمدن لم يكن يأت، وبشكل رئيسي من الزراعة ولكن من عوائد التجارة التي كان يضمنها لها دورها وسيطا بين الأمم. وبناءً على ذلك يمكن الزعم أن تكامل الموارد الاقتصادية بين بلاد المغرب وبلاد السودان عبر الصحراء شكل الركيزة الأساسية لخلق علاقات تجارية بين هذه الجهات[41].

وبفعل التباعد الجغرافي وقساوة الطبيعة الصحراوية والأخطار المحدقة بتجار بلاد المغرب أثناء عبور الصحراء، احتاج الأمر إلى التقيد بتقنيات تجارية تمكن من الحصول على الأرباح. وأغلب المصادر الجغرافية التي بين أيدينا تشير لـ "تصدير" المواد المصنعة والغذائية من طرف التجار المغاربة الذين كانوا "يستوردون" الذهب والعبيد أساسا[42].

عرفت هذه التجارة أوجها، قبل الاكتشافات الجغرافية البحرية الكبرى، وكانت القوافل التجارية تنطلق من المدن الكبرى في الشمال: فاس، وسجلماسة، ومراكش، ودرعة، وتلمسان، وتونس، والقاهرة... لترتبط بالمدن الواقعة على مشارف الصحراء أو في عمق السودان كأوداغشت وغانة وولاتة وتنبكتو وگاو وتادمكة وأگاديس... حيث كانت تستقر جماعات من التجار المغاربة الذين سهروا على ضمان انسيابية المتاجرة في مواد متنوعة[43].

خريطة رقم 3: الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر

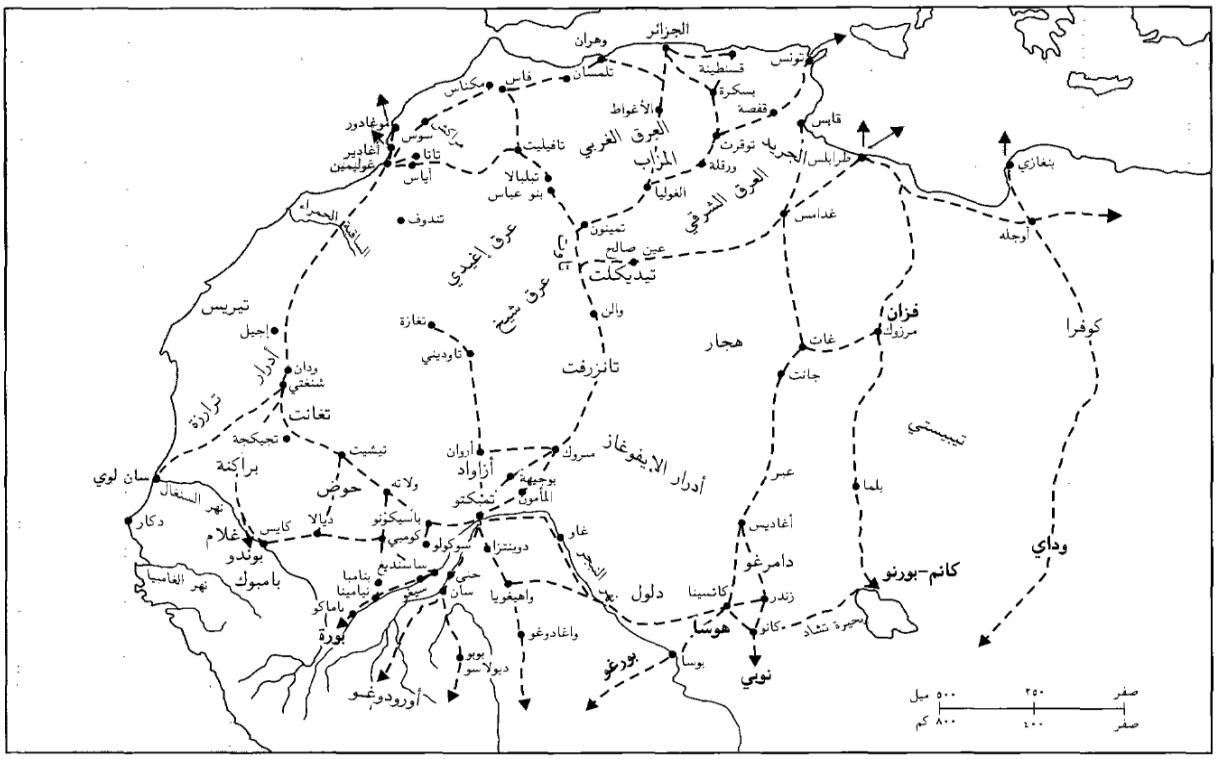

المصدر: م. أبيتبول، نهاية إمبراطورية الصنغاي، ضمن تاريخ إفريقيا العام، ج5، ص346.

[41]- سمير أمين، الأمة العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م، ص30.

[42] - Alaoui AbdelAziz, Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XI ème – mileu du XIV ème S.), thèse du doctorat de 3ème cycle, Université de Bordeaux III, 1983, t1, p.67.

[43] - Mauny Raymond, Tableau géographique de l'ouest africain ay moyen âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, IFAN, Dakar, 1961, pp.367-368.

ويمكن حصر أهم المواد المصدرة من المغرب في اتجاه بلاد السودان فيما يلي:

- **الملح**: حيث اشتهرت مملحة أوليل الواقعة بمنطقة الترارزة حاليا غير بعيد عن المحيط الأطلسي. وكذلك مملحة تغازة الواقعة على بعد 160كلم شمال شرق تاوديني. وكان يتم استخراج الملح على شكل ألواح، ولا يحمل الجمل سوى لوحتين (ما بين 85 و90 كلغ)[44]، وإلى ذلك يشير ابن بطوطة: "وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، ويقطعونه قطعا ويتبايعونه"[45]. وقد اختلف المؤرخون في تقدير أهمية الملح لدى أهل السودان وخصوصا الموغلين منهم في الغابات الاستوائية لدرجة جعلت قيمته لديهم تساوي قيمة الذهب في المعاملات التجارية، ومنهم من ربط ذلك بالاعتقاد الذي ساد لدى هؤلاء بأن استهلاك الملح المعدني يساعد على حفظ صحة الإنسان والحيوان والاستشفاء من الأمراض القاتلة[46].
- **النحاس**: وُجِدَ النحاس بشكل أكبر في بلاد المغرب منه بلاد السودان، وكان يتم نقله إلى المدن القريبة، وبعد أن يتم تحويله إلى قضبان وقطع توجه نحو بلاد السودان. وقد استعمل النحاس للعملة، ولصناعة الحلي، ولأغراض دينية خصوصا لدى شعوب الغابات الاستوائية في صناعة الأقنعة والأصنام[47]. وبالرغم من اعتماد أهل السودان على استيراد النحاس فقد وجدت بعض المناطق التي تستخرج منها كميات متوسطة بنيورو وغيرها[48].
- **الفضة**: توفر المغرب كذلك على مناجم الفضة حيث كان يتم نقلها إلى السودان على شكل قضبان تُحَوَّلُ إلى حلي وأثاث، لكن لم يكن لها الجاذبية نفسها التي حظي بها النحاس في التجارة العابرة للصحراء، إذ كان لها اعتبار أكبر في المدن المشرفة على الساحل الصحراوي المولعة بالحلي الفضية[49].
- **الأثواب والملابس**: عُرِفَتْ بلاد المغرب بالأثواب والملابس وامتد تأثيرها في هذا الجانب إلى بلاد السودان بفعل تنامي حركة التحضر وتزايد الإقبال على المواد النسيجية. وأهم الألبسة التي أقبل عليها السودان: الأردية، والأكسية، وأغطية الرأس والصوف الخام التي يتم تحويلها محليا لزرابي. وبحكم المنشأ البعيد للسلع الحريرية (الأندلس، مصر، الشام)، كان المغرب وسيطا، وبالتالي كانت أثمان هذه البضاعة مرتفعة[50]. وقد وجهت بعض الأثواب الصوفية المنسوجة بسجلماسة في اتجاه الجنوب[51]. وبخلاف الملح والنحاس اللذين عرفا ذيوعا إلى حدود الغابات الاستوائية، فإن المنسوجات كانت موجهة حصرا إلى المراكز الحضرية حيث كان يستقر الأمراء والحاشية. وبالمقابل استمر سكان البوادي والغابات على وفائهم لعاداتهم وتقاليدهم البدائية حيث "كان الناس يمشون عراة أو شبه عراة أو اتخذوا من جلود الحيوانات لبوسا"[52].
- **الأغذية والحيوانات**: بفعل الجفاف المتزايد وازدياد الكثافة السكانية أقلبت مناطق الواحات على استهلاك عدد من الأغذية الوافدة من مدن الشمال[53]. وشكلت جلود حيوان اللمط المستعملة درقا في الحروب أهم السلع المطلوبة على امتداد العصر الوسيط[54]. كما أقبل حكام السودان على الخيول البربرية التي كانت أحد أهم مكونات فرق الخيالة العسكرية للإغارة على أعدائهم. وكان يتم تبادل الخيول في مقابل العبيد بصفة تكاد تكون حصرية، واستمرت هذه الممارسات إلى حدود القرن التاسع عشر ومجيئ الاحتلال الأوروبي[55].
- استورد أهل السودان كذلك بعض المواد كالأسلحة، والمرجان، والعطور، والأخشاب، والأواني، والحلي، والأحجار، والكتب[56].

---

[44]- أبو عبيد عبد الله البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ / 2003م،ج2، ص358. الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422 هـ / 2002م، ج1، ص17.
Alaoui, Le Maghreb, pp.67-70.

[45]- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ / 1997م، ج4، ص241.

[46] - Mauny, Tableau, p.323.

[47]- محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م، ص330 .Alaoui, Le Maghreb, pp. 71-73

[48] - Mauny, Tableau, p.306.

[49] - Alaoui, Le Maghreb, pp.75-76.

[50] - Ibid, pp.76-81.

[51]- البكري، البكري، المسالك، ج2، ص331.

[52] - Alaoui, Le Maghreb, pp.76-81.

[53] - Ibid, p.81.

[54]- البكري، المسالك، ج2، ص358. أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص41.

[55] - Mauny, Tableau, p.364.

[56]- Ibid. p.364,373.

أما واردات بلاد المغرب من بلاد السودان فقد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالصادرات، حيث كان التجار يقومون بهذه العمليات عبر وساطات متعددة: مجموعات تنطلق من خليج غينيا في اتجاه مناطق استخراج الذهب والكولا شمال الغابات الاستوائية، ثم مجموعات أخرى تنطلق من المدن السودانية للتوغل جنوبا في اتجاه الغابات الاستوائية أو شمالا في اتجاه ممالح تغازة وأوليل...[57]، وبذلك لم يكن مسموحا للمغاربة بالتواصل مباشرة مع مصادر السلع الأساسية كالذهب والعبيد، وإنما عن طريق وسطاء من أهل السودان.

ويمكن إجمال أهم السلع التي تأخذ الطريق باتجاه الشمال فيما يلي:

- **الذهب**: تعتبر تجارة الذهب حجر الزاوية في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية، وقد حيكت حوله مجموعة من الحكايات الطافحة بالخيال كما يبدو ذلك من خلال المصادر[58]، وتفاوتت الأبحاث والدراسات المعاصرة في تقدير حجم هذه التجارة ومدى تأثيرها على قوة أو ضعف الدول المتعاقبة على حكم المغرب[59].
وكانت تجارة الذهب المسبوك أو التبر (مسحوق الذهب) تنطلق من المناطق المنتجة وإلى حدود المدن السودانية الواقعة على طرف الصحراء حيث كان يتلقاها التجار الوافدين بالملح من الشمال. وكان الحصول على الذهب يتم بطريقتين؛ إما عن طريق المبادلة الصامتة أو عن طريق عمليات البيع والشراء التي يقوم بها وسطاء متخصصون[60]. واشتهرت عدد من المدن باعتبارها محطات لنقل الذهب وتصنيعه كبرنو وأوداغشت وتادمكة وسجلماسة وورغلة، ولقي ذهب السودان الغربي رواجا وإقبالا نظرا لجودة عياره[61].
- **العبيد**: إلى جانب الذهب أثارت تجارة العبيد بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء جدلا بين المؤرخين حول حجم هذه التجارة وتحميل المغرب مسؤولية الاستبعاد في إفريقيا. والواقع، إن تجارة العبيد كانت مرتبطة بالحروب المستمرة بين الشعوب الإفريقية نفسها وحالة الاسترقاق التي كانت سائدة فيما بين هذه الشعوب. وكانت مجموعات من هؤلاء تُنْقَلُ إلى أسواق الشمال لِتُعْرَضَ على التجار المغاربة في جني، وتنبكتو، وگاو، وكانو ثم ينقلون إلى مدن المغرب والأندلس ومصر...[62]. واشتغلت أعداد من هؤلاء العبيد في الجيوش وفي بلاطات الأمراء وفي بيوت النخب الاجتماعية وفي الفلاحة على نطاق محدود.
- **التوابل والعاج**: كانت تجارة العاج بمقادير ضئيلة ولا يمكن الحديث عن تجارة موسعة لهذا النوع من السلع التي كانت تصل إلى شمال إفريقيا. كما أن معلوماتنا حول تجارة التوابل تظل شحيحة، ويمكن القول إن هذه التجارة لم تعرف رواجا إلا في عهد مملكة مالي فيما بين القرنين السادس والثامن للهجرة / الثاني عشر والرابع عشر للميلاد[63].

الكولا: ظلت الغابات الاستوائية الإفريقية مصدرا للكولا وتمكنت قبائل الديولا من احتكار هذه التجارة ومبادلتها مع التجار الحاملين للملح[64].

وبالنتيجة، تعددت أوجه الترابط الاقتصادي بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، وظلت هذه العلاقات ذات أهمية بالنسبة لاقتصاد المغرب إلى حدود النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حين انفتح المغرب على تجارة المحيط الأطلسي وعلى أوروبا. ومنذ سنة 1860م بدأت أفواج من التجار المغاربة بالاستقرار في مدينة سان لوي Saint Louis بالسنغال عاصمة "إفريقيا الغربية الفرنسية Afrique Occidentale Française"، وتعتبر هذه الهجرة ثمرة قرون من التواصل التجاري والمالي والبشري. وكان لأهل فاس حضور كبير في السنغال قبل أن تلحق بهم مجموعات من أهل مراكش وگلميم، وتافيلالت[65]. واليوم يعمل المغرب على إعادة ربط علاقات اقتصادية متجددة مع إفريقيا عن طريق إبرام شراكات تجارية تراعي مصالح الجانبين "رابح-رابح Win-Win" وتشمل ميادين الفلاحة والصناعة والتجارة والسياحة والخدمات.

---

[57] - Ibid, p.364.

[58]- راجع مثلا أبا حامد الغرناطي حيث يشير إلى أن الذهب ينبت في أرض بلاد السودان كبقية النباتات.
أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الأولى، 1413هـ / 1993م، صص38-39.

[59] - Cahen Claude, L'or du Soudan avant les Almoravides, mythe ou réalité ?. In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 66, n°242-243, 1er et 2e trimestres 1979, pp. 169-175.

[60] - Mauny, Tableau, pp.362-363.

[61] - Ibid, p.376.

[62] - Ibidem.

[63] - Ibid, p.362.

[64] - Ibid, p.366.

[65] - Nazarena Lanza, Liens et échanges entre le Maroc et l'Afrique Subsaharienne: Éléments pour une perspective historique, Karthala, Paris, 2011, p.9.

3- العلاقات الاجتماعية

من ناحية البنيات الاجتماعية يمكن رصد أوجه التشابه والاختلاف بين المغرب والسودان الغربي؛ فقد كانت المجتمعات الإفريقية التي نفذ إليها الإسلام مجتمعات ريفية تربطها صلات حميمية بالأرض وبجميع عناصر البيئة المحيطة بها مباشرة كالمعادن والنباتات والماء والهواء. وبإمكان الباحث أن يجد في هذه الثقافات الريفية المبنية على الرواية الشفهية أوجه الشبه بينها وبين جوانب اجتماعية وثقافية للمجتمعات المغاربية. وهذا لا يعني أن البنيات الاجتماعية للعالم الإسلامي كانت تشبه نظيرتها الإفريقية. فالمجتمعات الإفريقية لم تكن تعرف صورة العائلة الصغيرة المتكونة من رجل وامرأة وأطفال باعتبارها وحدة قائمة بذاتها، بل إن الشكل الأساسي لهذه البنية كان يتمثل في الأسر الكبيرة التي ينحدر أفرادها من جد واحد وتربطهم علاقات القرابة وملكية الأرض ويوحدهم إحساس قوي بالتضامن. وفي غرب إفريقيا تألفت المجتمعات من عدة عناصر اندمج فيها الصيادون مع جامعي الثمار والمزارعين في إطار كيانات محلية، بيد أن المناطق النهرية عرفت أوضاع أكثر تعقيدا، فقد أدى الإنتاج إلى تحقيق فائض سمح بتبادل السلع في حدود مسافات متوسطة[66].
وقام البناء الاجتماعي لمملكة غانة، على سبيل المثال، على النظام القبَلي شأن غيرها من الإمبراطوريات والممالك التي قامت بالسودان الغربي والأوسط، وساعد قيام حكومة مركزية مسيطرة على إضعاف التناحر بين القبائل[67]. وتقول الباحثة زوليخة بنرمضان إن التطورات السياسية التي شهدتها شعوب السودان الغربي والتي عكسها قيام الممالك وخلق المؤسسات، واكبها تطور على مستوى البنيات الاجتماعية، ذلك أن المجتمع السوداني في إطار تفاعله مع الظروف السياسية والدينية والاقتصادية الجديدة، أفرز أنماطا مجتمعية لها من الخصوصيات ما جعلها تتميز عن باقي المجتمعات الإنسانية الأخرى. ومن هؤلاء: الحرفيون، والعلماء، والشرفاء، والتجار، والعبيد، واليهود، والمرأة[68].

وقد ارتبطت بلاد المغرب وبلاد السودان بعلاقات اجتماعية انبنت على أساس العلاقات الاقتصادية التي ترسخت بين الجانبين على امتداد القرون، وهكذا تكونت في كلا الضفتين جاليات أسهمت في خلق تمازج اجتماعي عن طريق الهجرة والتجارة واستقرت مجموعات من المغاربة على طول محاور الطرق التجارية وتزاوجوا مع الساكنة المحلية، كما حلت مجموعات من السودانيين واستقروا بالمدن المغربية ومنهم من احتل مكانة متدنية في الهرم الاجتماعي، ومن هؤلاء من شارك في الجندية وأصبحت لهم مكانة عليا حيث وصلوا إلى القيادة العسكرية، ويكفي أن نذكر الدور الذي قام به عبيد البخاري في عهد السلطان المولى إسماعيل العلوي وما بعده، كما حصل بعض منهم على منصب الحجابة. ومن جهة أخرى قدمت أفواج من هؤلاء، ضمن الطلبة الآفاقيين، إلى عواصم المغرب الكبرى كفاس ونهلوا العلم منذ مرحلة مبكرة. ولا شك أن هذا التمازج أفضى إلى نوع من المثاقفة بين المغاربة والأفارقة وهو ما يبدو من خلال مجموعة من العادات والتقاليد.
وقد ترسخت هذه العلاقات على مر القرون حيث إن الجاليات المغربية التي استقرت في السنغال منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد اختلطت مع الساكنة المحلية وتزاوجت معها وأصبحنا أمام عائلات سنغالية تحمل أسماء مغربية... بينما ظل أفراد آخرون على ارتباط بالبلد الأم وكانوا يفضلون العودة إلى المغرب للبحث عن زوجات. ومنذ سنوات الستينيات من القرن العشرين يحتل التبادل الطلابي بين المغرب والسنغال مكانة مهمة، مع ملاحظة أن مغاربة السنغال يحاولون إعادة إنتاج نفس الديناميات الاجتماعية السائدة في المغرب. وفي الاتجاه المعاكس، تترجم العلاقات بين الجانبين من خلال أفواج الطلبة الأفارقة الذين يفدون على الجامعات المغربية، ومجموعات من مريدي الطائفة التجانية، والتجار، والمهنيين، والمهاجرين غير الشرعيين الحالمين أو بالعبور إلى أوروبا أو الذين استهواهم المكوث بالمغرب بحيث أصبح هؤلاء يحتلون رقعة متزايدة ضمن البانوراما الاجتماعية بالمغرب ويدفعون نحو زحزحة مجموعة المسلمات في نظرة المغربي للآخر[69].

4- العلاقات الثقافية والروحية

هناك مسألة أساسية أخرى هي أن التجارة لم تجلب غير السلع، وإنما نقلت معها الأفكار، والقيم، والحضارة عموما، ومن بين ما يسترعي نظر الزائر المطلع في أقطار إفريقيا الغربية اليوم، تشابه عناصر عدة من ثقافتها مع ثقافة "بلاد المغرب". وهو تشابه يشمل عادات اللباس والأكل والعمارة والدين والفكر إلخ... حقيقة إن كثيرا من هذه الجوانب الحضارية تعرضت لقليل أو كثير من التغيير، بفعل اندماجها في البيئة المحلية وتأثرها بمكونات جديدة؛ بيد أن تفحصها

---

[66]- دفيس ويانسينا، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر: قرون التكوين الخمسة، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، إشراف محمد الفاسي وإ هربك،، منشورات اليونيسكو، بيروت، الطبعة الثانية، 1997م، صص843-844.

[67]- طرخان، غانة، ص68.

[68]- زوليخة بنرمضان، المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5و10هـ / 11و16م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1436هـ / 2015م، صص277-344.

[69] - Nazarena Lanza, Liens et échanges, pp.9-10.

عن قرب يكشف عن طابعها المغربي[70]. ولعل الحياة الدينية والفكرية بتلك الدول تعكس أكثر من غيرها من تلك الملامح المغربية، على الرغم مما أصابها من تبدل نتيجة لتوالي العصور، ولاحتكاكها بغيرها من المقومات الأصلية والوافدة[71].

وشملت التأثيرات المغربية في بلاد السودان الجانب الديني والفكري بحيث اعتنق عدد مهم من أهل السودان الإسلام، وتمذهبوا بالمذاهب السائدة ببلدان المغرب، مع ما كان لذلك من تأثير على :
-السياسة الداخلية والخارجية للدول المحلية، من طريقة التعامل مع السكان المسلمين والأرواحيين وطبيعة الروابط مع دول شمال الصحراء.
-الحياة اليومية للأفراد والجماعات، من سلوك ديني وعادات اجتماعية، إلخ...
-اقتباس أهل السودان الثقافة المقترنة بالإسلام، وبمن حملها إليهم من المغاربة؛ فكتبوا باللغة العربية وبالخط المغربي، ونهلوا من ثقافة المذهب المالكي عبر تداول كتبه، والرحلة إلى مراكزه، واستقدام رجاله وأعلامه.
فكان أن ولدت بالسودان الغربي ثقافة زنجية إسلامية، شديدة التأثر ببلاد المغرب مظهرا وجوهرا[72].

ففي القرن السابع الميلادي، وصلت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد المغرب وتوغلت بعيدا في عمق الصحراء، فكان ذلك إيذانا ببداية عصر جديد من المبادلات والتأثيرات بين البلدان المتاخمة للصحراء. فعلى مدى تسعة قرون أمنت عبور البضائع والهجرات والسفارات. ومع هذا وذاك تسربت العقائد والمذاهب والمعارف والتقنيات والمحاصيل، مع ما صحب ذلك من تأثير إيجابي على الكيانات السياسية والبنى السوسيو اقتصادية. وقد لا نغالي إذا قلنا بأن العلاقات العابرة للصحراء هي العنصر المحرك الذي جعل من العصر الوسيط عصرا ذهبيا في مجموع مناطقنا. وانتهت هذه المرحلة مع نهاية القرن السادس عشر الذي يعتبر نقطة تحول حاسمة في تاريخ العلاقات المغربية السودانية؛ إذ أدت الحملة السعدية على إمبراطورية سنغاي إلى إحداث شرخ في تلك العلاقات، التي كانت فيما قبل على أسس ووسائل سلمية. وصار الوجود المغربي في السودان الغربي منافسا من قبل الأوروبيين. وهي منافسة تعدت ما هو اقتصادي إلى رغبة هؤلاء في نشر المسيحية والثقافة المقترنة بها بين السودان، بعد أن كان الإسلام هو الدين السماوي الوحيد بالمنطقة[73].

وإذا سلمنا بثنائية التجارة والإسلام في إفريقيا الصحراوية والسودانية، وهي ثنائية تقوم على أساس عمل التاجر من أجل نشر دينه، لضمان أمنه وأسواق وامتيازات جديدة، فمن المفترض أن يكون الخوارج هم رواد الأسلمة في الصحراء الأطلسية والوسطى. ومنذ القرن 3هـ/10م مارس سكان كوار مسلمون يمارسون التجارة مع بلاد السودان. وبالنتيجة أبان الإباضية عن حماس في الدعوة إلى الإسلام بالقدر الذي أبانوه في تنظيم تجارة القوافل. وبفضل بني مدرار انتشر الإسلام في بين قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة التي كانت تضرب بنواحي سجلماسة على طول المفازة بينها وبين بلاد غانة[74].

ويمكن الجزم بأن التأثير المغربي على بلاد السودان الغربي الوسيط مس الجانبين المذهبي والروحي؛ فبرز على مستوى الشعائر والاحتفالات الدينية، وعلى مستوى المذاهب التي تداولها المغاربة، وخصوصا مذهب مالك الذي تعلق به السودان منذ أن أشاعه المرابطون. كل ذلك أضفى على حياة المجتمعات المحلية طابعا من التجانس. ولعل أهم خصوصيات الممارسة الدينية لدى السودان، تشبثهم بالإسلام، وببعض رواسب الديانات التقليدية المحلية[75]. واقترنت حياة السودان الروحية بما نهلوه من الحركة الفكرية ببلدان المغرب عبر قنوات متعددة كانتقال العلماء والطلاب والكتب بين ضفتي الصحراء، فكان ذلك أهم روافد الفكر السوداني في العصر الوسيط.

ودخلت العلاقات المغربية التاريخ الحديث والمعاصر من الجانب الروحي منعطفا آخر حيث كان للتصوف الحظ الأوفر في ترسيخ قواعد الإسلام وتجديده والوقوف ضد خصومه في إفريقيا جنوب الصحراء، وكان للطرق الصوفية المغربية إشعاع وحضور في خصوصا في السودان الغربي حيث أصبح للزوايا القادرية، والشاذلية، والتجانية أثر بالغ مد الإشعاع الثقافي الروحي المغربي إلى ما وراء الصحراء، وفي تجديد الإسلام ومحاربة الوثنية والاستعمار في بلدان حوضي السنغال والنيجر[76].

---

[70]- العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي، ج1، ص2.
[71]- زكري دراماني – إيسوفو، الإسلام كنظام اجتماعي في إفريقيا منذ القرن السابع الميلادي، تاريخ إفريقيا العام، م3، ص127. العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي، ج1، ص2.
[72]- إيسوفو، الإسلام كنظام اجتماعي في إفريقيا، ص6.
[73]- نفسه، الصفحة نفسها.
[74]- محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، ص299. العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي، ج1، صص141.143.
[75]- نفسه، ج1، صص312-313.
[76]- أحمد الأزمي، الإشعاع الصوفي المغربي في إفريقيا جنوب الصحراء خلال التاريخ الحديث والمعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، 2013م، ص5.

رابعا: التدخل الأوربي في أفريقيا جنوب الصحراء

1- اكتشاف عمق القارة الإفريقية

هناك ثلاثة أنهار كبرى تشمل إفريقيا جنوب الصحراء، وهي: النيل في امتداده إلى البحر المتوسط شمالا، ونهر النيجر، ونهر الكونغو، وتظل فائدتها الملاحية محدودة بسبب العوائق المختلفة في الشلالات والجنادل والحواجز الرملية والتقلبات الفصلية في منسوب مياهها. أما الأنهار الأقل شأنا مثل شيريه، وفولتا والسينغال، وغينيا، فنادرا ما استخدمت حتى الأزمنة الحديثة. وقد جاء كشف القارة الإفريقية مع بداية القرن 19 في سياق تمهيد الطريق لحركة الاستعمار التي شملت معظم أجزاء القارة[77]. وقد قسم العديد من الكتاب مراحل الكشف إلى أربعة:

- المرحلة الأولى: هي مرحلة اكتشاف الجزر والسواحل من القرن 16 إلى حدود منتصف القرن 18؛ خلال هذه المرحلة اقتصر عمل الرحالة ومغامري أوروبا الغربية بزعامة البرتغال على الكشف عن سواحل القارة وجمع قسط ضئيل من المعلومات عن أحوالها الداخلية[78].

- المرحلة الثانية: مرحلة الكشف الجغرافي؛ وتبدأ برحلات البريطاني جيمس بروس James Bruce في سياحته للكشف عن منابع النيل فيما بين 1768 و1773م، وتنتهي بوفاة لفينگستون[79].

- المرحلة الثالثة: مرحلة الكشف السياسي؛ وهي التي ابتدأت برحلات البريطاني هنري ستانلي منذ 1871م إلى الكونغو، وانتهت بتقسيم القارة الإفريقية بين القوى الأوروبية الاستعمارية في مؤتمر برلين 1884-1885م[80].

- المرحلة الرابعة: مرحلة الكشف العلمي؛ وقد بدأ بأغراض استعمارية للكشف عما تخبئه الأرض الإفريقية من خيرات لاستخراجها واستغلالها[81].

إن ما يُهمنا من هذه المراحل الأربع هما المرحلتان الثانية والثالثة، إذ هما من مكنا الأوروبيين من التوغل داخل القارة ومجاريها وأنهارها وغاباتها، حتى إذا ما تم لهم ذلك اجتمعوا في مؤتمر برلين لتدارس كيفية اقتسام الغنيمة الإفريقية فيما بينهم بأنصبة تلائم قوة كل طرف؛ فالحركة الكشفية التي سنهتم بها في هذه الفقرات هي حركة كشف الأنهار الإفريقية بشكل عام، دون الاقتصار على إفريقيا الغربية وحدها، وذلك بقصد معرفة أعماق هذه القارة التي ظلت إلى حدود أوائل القرن 19م شبه مغلقة أمام الأوروبيين ولم يكن معروفا منها سوى الأجزاء الساحلية.

لقد كان التعرف على الأنهار الإفريقية بمثابة المفتاح الذي شرع أبواب القارة بأكملها أمام الأوروبيين ويتعلق الأمر بكشف كل من نهر النيل ومنابعه، ونهر النيجر، ونهر الكونغو، ونهر الزمبيزي.

أ – كشف نهر النيل ومنابعه:

استغرقت محاولة كشف هذا النهر حوالي قرن من الزمان، وتجند للمساهمة فيها عدد من الرحالة، أغلبهم من الجزر البريطانية باستثناء البكباشي سليم قبطان، مما يفسر أن الإسهام العربي في هذا المجال كان ضئيلا. ومن أبرز الذين غامروا وضحوا بأرواحهم أحيانا للعثور على منابع النيل:

- البريطاني جيمس بروس James Bruce: انطلق في رحلته منذ 1768م وخلال صيف 1770م تتبع مجرى النيل الأزرق، وتوصل إلى أن منبع هذا النهر من بحيرة تانا Tana الحبشية، لكنه اعتقد خطأ أن هذه البحيرة هي المنبع الوحيد للنيل دون أن يلتفت إلى المنابع الاستوائية للنهر[82].

---

[77]- شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر: طبعة جديدة ومنقحة، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، 1422هـ / 2002م، ص20.

[78]- نفسه، صص37-38.

[79]- نفسه، ص38.

[80]- نفسه، الصفحة نفسها.

[81]- نفسه، الصفحة نفسها.

[82]- نفسه، صص20-21.

 البكباشي سليم قبطان: حين مد محمد علي نفوذه إلى السودان، أرسل البكباشي للكشف عن منابع النيل، فقام بثلاث حملات فيما بين 1839 و1842 وقد أثبتت هذه البعثة أن النيل الأبيض هو المغذي الأساسي للنهر خلافا لما أشاعه جيمس بروس من قبل، كما دونت ملاحظات مهمة وبيانات عن القبائل الإفريقية ومنتجات هذه البلاد[83].

 برتون وسبيك :Burton and Speke هما ضابطان عسكريان التحقا بالجيش البريطاني في الهند، قبل أن يقررا القيام برحلة لشرق إفريقيا والتوغل فيها للداخل بناءً على معلومات استقياها من التجار العرب، وذلك بدعم من وزارة الخارجية البريطانية، وكان برتون يتقن العربية ولغات محلية أخرى. وصل الرحالتان إلى بحيرة تنجنيقا Tanganyika في فبراير سنة 1858 وعايناها وتخلف برتون فلم يستطع متابعة السفر، بينما واصل سبيك مسيره للشمال فوصل في غشت 1858 إلى الشاطئ الجنوبي للبحيرة التي أطلق عليها اسم "نيانزا فيكتوريا Nyanza Victoria" أي بحيرة فيكتوريا وهو اسم ملكة بريطانيا، والتي أعلنها المنبع الأساسي للنيل[84].

 سبيك وگرانت :Speke and Grant مَوَّلَتْ الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية Royal Geographical Society حملة جديدة بقيادة سبيك صحبة الضابط جيمس گرانت، لتتبع نهر النيل عند خروجه من بحيرة فيكتوريا، غير أنهما تعرضا للأسر من طرف القبائل المحلية، مما دفع بالحكومة البريطانية بإرسال صمويل بيكر للبحث عنهما. ولم يلتقهما إلا في 1863. لم يتراجع سبيك إلى الخلف واستمر في بحثه حيث وصل في 24 يوليوز 1862 إلى مجرى النيل وشلالات ريبون Chutes de Rippon حيث عالية النهر عند خروجه من بحيرة فيكتوريا[85].

على أن هذه التأكيدات والاكتشافات لم تثن برتون عن التشكيك في نتائج سبيك ودارت بينهما جولات من الجدل حول من يمتلك الحقيقة العلمية في اكتشاف منابع النيل الحقيقية .

 صمويل بيكر: عرضت عليه الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية أن يتقدم في النيل جنوبا للبحث عن الرحالتين سبيك وگرانت، وفي فبراير 1863 عثر عليهما، وعلم منهما أنهما وصلا إلى منابع النيل، لكنهما ذكرا له أنهما سمعا عن وجود بحيرة أخرى في الغرب، حيث وصل إليها في 14 مارس 1864، وأطلق عليها اسم "ألبرت نيانزا Albert Nyanza" أي بحيرة ألبرت تكريما لزوج الملكة فيكتوريا[86].

وقد تلت هذه الرحلات جولات أخرى قام بها عدد من الرحالة في مقدمتهم البريطانيين ليڤينگستون وستانلي والألماني شوانبفورت وغيرهم، ونجحت هذه الجهود في تأكيد الكثير من الحقائق الجغرافية التي وصل إليها الرحالة السابقون، لكن لم تكن قد تأكدت صحتها بعد، بالإضافة إلى رسم خرائط للمناطق التي لم تكن قد رسمت بدقة من قبل.

ب – نهر زمبيزي:

يرتبط كشف هذا النهر باسم الرحالة دڤيد ليڤينگستون David Livingstone وهو بريطاني/اسكتلاندي، قام بعدة جولات تمتد من 1841 إلى 1873 جمع فيها بين المستكشف والمبشر. وفي رحلته الأولى وصل إلى نهر لمبوبو، واخترق صحراء كلهاري، واكتشف بحيرة نجامي Ngami عام 1849، وتتبع نهر الزمبيزي حتى مصبه مكتشفا المساقط المائية التي أطلق عليها شلالات فيكتوريا، كما أطلق على المدينة المحاذية للشلالات اسم ليڤينگستون .

لم يتمكن ليڤينگستون من إتمام كشف النهر إلا في رحلته الثانية (1858-1864)، أما رحلته الثالثة والأخيرة (1866-1873) فقد التقى خلالها باستانلي Stanley وقاما معا برحلة أكدا من خلالها أن بحيرة تنجنيقا ليست من منابع النيل كما كان يزعم برتون. وقد ركز ستانلي جهوده على فك رموز شبكة الأنهار والبحيرات وسط القارة الإفريقية وعلى تسجيل مؤاخذاته على تجارة الرقيق، وجمع أكبر عدد ممكن من المعلومات عن شعوب إفريقيا ومواردها الاقتصادية وأنظمة حكمها، وذلك بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية بلندن ومن طرف الهيآت التبشيرية. وقد توفي ليڤينگستون في شهر فاتح ماي 1873، على ضفاف بحيرة بانگويلو Bangwelo على أحد رواف نهر الكونغو، وهو يواصل عمله الاستكشافي تمهيدا للعمل الإمبريالي[87].

[83]- شوقي الجمل، تاريخ إفريقيا، صص21-22.
[84]- نفسه، صص23-24.
[85]- نفسه، ص24.
[86]- نفسه، صص24-26.
[87]- نفسه، صص26-29.

ج – نهر النيجر:

تضاربت الآراء والأخبار بخصوص نهر النيجر ومنابعه، وظلت هذه المشكلة قائمة إلى حدود القرن 18 عندما اهتمت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بمعرفة هذا النهر انطلاقا من شاطئ گامبيا الذي أسست فوقه بريطانيا بعض المراكز التجارية، ولقد أسهم في كشف نهر النيجر وتتبع مجراه عدة رحالة ومستكشفين أبرزهم:

 رحلات منگو بارك :Mungo Park هو بريطاني ابتدأ نشاطه بتتبع نهر گامبيا سنة 1796، ومنه وصل إلى مدينة سيگو على نهر النيجر، واستطاع أن يتحرك على شواطئ النهر لمسافات طويلة، واتضح له أن النهر يسير من الغرب في اتجاه الشرق، لكنه لم يستطع أن يتتبع مجراه إلى المصب، ومات خلال رحلته الثانية عام 1806 دون تحقيق هدفه، وفقدت بذلك ملاحظاته المدونة. وقد استطاع منگو بارك أيضا أن يصل إلى منابع نهري السينغال وگامبيا، وأن يتحقق من أن هذين النهرين يجريان غربا إلى المحيط الأطلسي عكس نهر النيجر، وهكذ أثبت أن هذه الأنهار الثلاثة منفصلة[88].

 كلابيرتون وأودني :Clapperton and Oudney كلابيرتون بريطاني أيضا بدأ رحلته عام 1822 من طرابلس رفقة الدكتور أودني الاستكلاندي مرورا بفزان وبحيرة التشاد، واتجها صوب نهر النيجر عبر مناطق قبائل الهوسا، وتوفي أودني في الطريق. وواصل كلابرتون سيره إلى سوكوتو لكن لم يسمح له حاكمها بموصلة التقدم فعاد أدراجه[89].

 كلابيرتون ولاندر :Clapperton and Lander قام كلابيرتون برحلة ثانية بتكليف من وزارة المستعمرات البريطانية ورافقه في هذه الرحلة لاندر لعقد اتفاق مع سلطان سوكوتو، وقد بدأت رحلتهما من خليج غانا، وأثناء هذه الرحلة تم التعرف على الكثير من المعطيات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية الإفريقية في المنطقة الموجودة بين بحيرة التشاد ونهر النيجر. ومات كلابيرتون بعد أن دون مذكراته بمدينة سوكوتو عام 1827 ودفنه لاندر هناك[90].

 رحلة لاندر الثانية وشقيقه الصغير يوحنا: كانت رحلة لاندر السابقة رفقة كلابرتون مشجعة للحزب الاستعماري في إنجلترا من أجل الوصول إلى ثروات الداخل الإفريقي. وهكذا أكدت هذه الرحلات أن نهر النيجر يتجه للشرق، كما أنها شرعت الباب للشركات التجارية والمستعمرين والمغامرين الأوروبيين للولوج من الساحل الغربي لقلب القارة[91].

لم تتوقف جهود المستكشفين عند هذا الحد، فقد زادت معلومات الحزب الاستعماري تعمقا بنشر الرحالة بارت Barth مشاهداته في خمس مجلدات عامي 1857-1858 بعد الرحلة التي قادته من تونس إلى كانو وكانگ وتنبكتو ابتداءً من عام 1849، كما أن فرنسا كانت لها محاولات استكشافية في أعالي نهري النيجر والسينغال. نكتفي بالإشارة إلى رحلتي گاسبار موليان Gaspard Mollien إلى السيغال حوالي بين 1816 و 1818 وروني كايي René Caillé إلى تنبكتو عام 1828 .

د – نهر الكونغو:

يرجع الفضل في اكتشاف هذا النهر لجهود البريطاني هنري مورتون ستانليHenry Morton Stanley ، الذي يدخل في سجل أعماله كذلك تصحيح الكثير من المعلومات حول بحيرة فيكتوريا وتنجنيقا، والتأكد من أماكن مصبات العديد من الأنهار وروافدها. على أن بداية أعماله بهدف كشف نهر الكونغو انطلقت من نهر لوالَبا Lualaba الذي عزم على الإبحار فيه حتى مصبه لمعرفة ما إذا كان متصلا بالنيل أو بالكونغو، والتقى بزعيم عربي خبير بالمنطقة يدعى حميد بن محمد المُرجبي المشهور في كتب الرحالة باسم تيبُّو تيب .Tippo Tip انطلقت الحملة في غشت 1876، وفي يناير 1877 وصلت إلى منطقة الشلالات التي عرفت باسم شلالات ستانلي واجتازتها، وفي مارس من السنة ذاتها وصلت إلى المدينة التي سميت ستانلي بول، وفي يوليوز وصل من بقي من أفراد الحملة إلى غرب مصب الكونغو عند مدينة بوما، وبذلك أثبت ستانلي أن نهر لوالبا متصل بالكونغو، وأن الكونغو ينبع من الوسط ليصب في المحيط الأطلسي[92].

بعد هذا الكشف الذي فتح الباب أمام البورجوازية الجشعة لارتياد الغابات المدارية ذات الثروات المتنوعة (زيوت النخيل – الأخشاب – المطاط)، ودخل ستانلي في خدمة ملك بلجيكا ليوبولد الثاني، وترأس بعثة بين 1879 و1884، وأقنع

---

[88]- شوقي الجمل، تاريخ إفريقيا، ص30.
[89]- نفسه، ص32.
[90]- المرجع، الصفحة نفسها.
[91]- نفسه، ص33.
[92]- نفسه، صص33-36.

الرؤساء المحليين بمنح سيادتهم إلى التاج البلجيكي، وانتهى الأمر بأن أصبحت الكونغو ضيعة خاصة للملك البلجيكي باسم "الكونغو الحرة"[93].

أمام هذا الوضع تحركت فرنسا في اتجاه الكونغو، فأرسلت الضابط الفرنسي دو برازا Debrazza ليقوم باستكشاف الضفة اليمنى لنهر الكونغو والأقاليم المجاورة، لتضمن لها موطئ قدم بالمنطقة في أي تقسيم مستقبلي . وفعلا اكتشف دوبرازا، بعد عدة رحلات 1874-1879، نهر أوگوي Ogowé وأسس بمنابعه مدينة فرانس ڤيل FranceVille ، وتقابل دو برازا مع ستانلي في المدينة التي سميت فيما بعد برازاڤيل BrazzaVille . وقد ترتب على اكتشافات دوبرازا في حوض نهر الكونغو قيام مستعمرة الكونغو الفرنسية فيما بعد.

لقد كان نهر الكونغو هو آخر الأنهار الإفريقية المكتشفة منابعها ومجاريها، على أننا سنرى أن هذه الاكتشافات كانت بمثابة إعداد الطريق للحركة الإمبريالية، وهذا ما شكل الشرارة التي أججت التنافس الاستعماري بين القوى الأوروبية لتَنقض على القارة الإفريقية، وكانت بلجيكا وفرنسا وإنجلترا ثم ألمانيا في مقدمة هذه الدول وانتهى الأمر بعقد مؤتمر برلين 1884-1885 للوصول إلى تسوية تلتزم بها الدول الاستعمارية في نشاطها.

2- التنافس الاستعماري الأوروبي على القارة الإفريقية

إلى حدود سنة 1850 لم يكن الأوروبيون قد نفذوا إلى عمق القارة الإفريقية، واستمر حضورهم على المناطق الساحلية. وانطلاقا من هذا التاريخ أصبح التنافس الأوروبي على الأراضي أكثر تنظيما وأكثر شراسة إلى درجة أشعلت فتيل الصراع بين القوى الأوروبية المتنافسة. ومن أجل تفادي الوقوع في نزاعات مفتوحة، دعا المستشار الألماني بيسمارك إلى عقد مؤتمر برلين لسنة 1885 لتقسيم القارة الإفريقية. وقد رسم هذا المؤتمر خريطة الطريق لاحتلال إفريقيا وتقسيمها بين القوى الأوروبية الكبرى معتمدا على معايير أساسية، منها:

- رسم الخريطة السياسية للقارة، حيث أسست كل دولة أوروبية مستعمراتها انطلاقا من السواحل مع الامتداد إلى عمق الأراضي الإفريقية، وهو ما أتى في أحيان كثيرة على حساب التجانس الجغرافي والسياسي والاجتماعي والثقافي للشعوب المستعمرة.

- توجيه نظام المبادلات بين الدول المستعمِرة والمستعمَرات، حيث أصبح لكل دولة أوروبية الحق الأحادي في الاستئثار بالمقدرات الاقتصادية لمستعمراتها، كما فرضت لغاتها وقوانينها وتعليمها، واستقبلت نخبا من الطلبة الأفارقة والعمال والجنود المقاتلين المساهمين إلى جانبها في الحروب الكبرى.

انعقد مؤتمر برلين فيما بين 15 نونبر 1884 و26 فبراير 1885 وحضره مندوبو أربع عشرة دولة هي: النمسا والمجر وألمانيا وبلجيكا والدانمارك وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا والنرويج والدولة العثمانية والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا[94].

واتسع نطاق منافسات هذا المؤتمر الذي انعقد أساسا لتدارس مسألة صراع القوى الاستعمارية على نهر الكونغو ليشمل الاستعمار الأوروبي في إفريقيا عامة، وقد عدّدَ بيسمارك أهداف هذا المؤتمر في موضوعات رئيسية هي:

- حياد إقليم الكونغو وحرية الملاحة والتجارة فيه.
- حرية الملاحة والتجارة في نهر النيجر.
- عدم فرض أية دولة حمايتها أو سيطرتها على المناطق الساحلية في إفريقيا دون أن تعلم بذلك الدول الأخرى التي وقعت على هذا الاتفاق.
- عدم إعلان أية دولة الحماية على منطقة من القارة الأفريقية دون أن تكون هذه الحماية مؤيدة باحتلال فعلي[95].

يعطي مؤتمر برلين، سواء في مناقشاته أو في نتائجه، صورة واضحة عن الصراعات التي كانت تدور بين القوى الكبرى في أوروبا آنذاك، خاصة ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، أما باقي الدول المشاركة فكانت تسير في فلك واحدة من هذه الدول أو بِوَحْيٍ منها[96].

---

[93]- شوقي الجمل، تاريخ إفريقيا، ص36.
[94]- نفسه، ص147. أحمد الأزمي، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية، ص139.
[95]- شوقي الجمل، تاريخ إفريقيا، صص147-148. أحمد الأزمي، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية، ص140.
[96]- أحمد الأزمي، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية، ص140.

3- حركات المقاومة في بلاد السودان

كان اغتصاب إفريقيا القضية الكبرى التي حركت الأوروبيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بناءً على قرارات مؤتمر برلين. وبالرغم من أن إفريقيا كانت قد أنهكتها قرون من تجارة العبيد، فإنها كانت أبعد من أن تكون سهلة المنال لمن يريد استعمارها من الأوروبيين. وقد شهدت هذه المرحلة ظهور زعامات وحركات حاولت أن تؤسس لمجموعات سياسية تجاوزت في بنيانها مستوى القبيلة. وقد ركزت كل من فرنسا وبريطانيا على الخصوص نشاطهما العسكري في كل من بحيرة التشاد ونيجيريا وأعالي أنهار النيجر والسينغال وگامبيا[97]. إنها المنطقة التي نشأت فيها دار الإسلام الأولى في إفريقيا الغربية وظهرت فيها ثلاث دول إسلامية، في القرن التاسع عشر، هي خلافة سوكوتو في شمال نيجيريا، وخلافة حمد الله في ماسينا وخلافة التيجانية بقيادة الحاج عمر الفوتي في والسينغال وگامبيا وماسينا[98]. ويمكن وصف أهم نماذج حركات المقاومة الإسلامية التي نشأت ببلاد السودان في الآتي:

- في نيجيريا: تكونت الساكنة في الشمال في معظمها من المسلمين، خصوصا مدن سوكوتو وكاتسينا وكادونا وبزاريا وبوشي، وشكلت سوكوتو مركز سلطة قوية من الفولاني بزعامة عثمان بن فودي (عثمان دان فودو) على الطريقة القادرية[99]. وصل صدى دعوة ابن فودي إلى السلطان المغربي المولى سليمان، وبلغه ما عليه الشيخ عثمان، فأبدى تجاوبه معه، وإعجابه بحركته، وكتب في هذا الشأن رسالتين سنة 1225هـ وجه الأولى إلى محمد الباقري أمير آهير الواقعة حالياً في النيجر، والثانية باسم الشيخ عثمان بن فودي نفسه يبارك له فيها عمله ويدعو له بالنصر والتوفيق[100].
وقد أخضعت إمبراطورية الفولاني الإسلامية أو إمبراطورية سوكوتو دويلات الهوسا المتعددة في بورنو وكانو وغيرهما. وبالتالي أصبحت تسيطر على مجموع الأراضي التي تشكل اليوم دولة نيجيريا، وكان لزاما على القوات البريطانية الراغبة في احتلال هذه الجهات أن تواجه إمارات الفولاني إلى أن استطاعت إخضاعها بسبب عدم تكافئ موازين القوة بين الطرفين.
- وفي أعالي أنهار النيجر والسينغال وگامبيا عندما كانت فرنسا تتوغل في غرب إفريقيا خلال النصف الثاني من القرن 19 انطلاقا من المحيط الأطلسي غربا إلى ما بعد بحيرة التشاد شرقا، واجهت مقاومة عنيدة من قبل عدة زعامات إسلامية، قامت للدفاع عن المسلمين في أعالي أنهار النيجر والسينغال وگامبيا. وأهم القادة المجاهدين بهذه الأصقاع من السودان الغربي: الحاج عمر بن سعيد الفوتي، والشيخ محمد الأمين، وساموري توري.استطاع الحاج عمر الفوتي أن يشكل مملكة من أراضي سينغامبيا وماسينا وأسس خلافة تيجانية وتلقب بالخليفة خاتم الأولياء[101]. وقد ارتبط الحاج عمر بالمغرب في العديد من محطات تكوينه العلمي والصوفي والسياسي، ثم في المرحلة الثانية من مساره حين أعلن الجهاد وأقام الدولة التيجانية[102].
ومع أن خلفاء الحاج لم يستطيعوا الحفاظ على المملكة بفعل تفوق الجيش الفرنسي في العَدد والعُدة الذي كان سببا في إسقاط كل هذه الزعامات وإخضاعها للاحتلال الأجنبي. فإن مجهودات هؤلاء القادة المسلمين قد رسخت العقيدة الإسلامية في نفوس أهل السودان الغربي، وجعلت روح الإسلام حية بينهم سواء أثناء الاحتلال الأوروبي أو بعد استقلال دول إفريقيا جنوب الصحراء[103].

خلاصة:

حاولنا من خلال هذه المحاضرات إبراز الخطوط العامة لتاريخ العلاقات المغربية مع بلاد السودان ضمن سياقها التاريخي العام، وقد تبيَّنا من خلال هذه النظرة السريعة تجذر هذه العلاقات وأصالتها ومدى التفاعل الذي ربط بين ضفتي الصحراء على مدى زمني طويل استطاع من خلالها المغرب أن يحافظ على علاقاته الإفريقية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وذلك بالرغم من التقلبات الناتجة عن تعاقب الدول الحاكمة وعن الغزو والاحتلال الأوروبي الذي فرض معطيات جيوسياسية جديدة لم تفلح في عزل المغرب عن إفريقيا.

---

[97]- جوزيف كي زيربو، تاريخ إفريقيا السوداء، ترجمة يوسف شلب الشام، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1994م، القسم الثاني، ص613.

[98]- عزيز بطران، الثورات الإسلامية في إفريقيا الغربية في القرن التاسع عشر، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد السادس، القرن التاسع عشر في إفريقيا حتى ثمانينياته، تحت إشراف ج.ف. آ منشورات اليونيسكو، لبنان، 1996م، ص607.

[99]- نفسه، ص615.

[100]- عبد العلي الودغيري، ملامح من التأثير المغربيّ في الحركة الإصلاحية للشيخ المجدّد عثمان بن فُودي (على موقع: http://machahid24.com/etudes/97811.html بتاريخ: 2015/09/01)

[101]- بطران، ص616.

[102]- أحمد الأزمي، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية، ص22.

[103]- نفسه، ص178.

البيبليوغرافيا

المصادر:

-أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الأولى، 1413هـ / 1993م.
-أبو عبيد عبد الله البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ / 2003م.
-الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422 هـ / 2002م.
-عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، وقف على طبعه هوداس، المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية، باريز، 1981م.
-عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط3، 1427هـ / 2006م.
-عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، تحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992م.
-علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
-الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، د.ت.
-محمد بن عبد الله ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المجلد الرابع، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ / 1997م.
-محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.

المراجع العربية:

-أبيتبول، نهاية إمبراطورية الصنغاي، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الخامس، إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، إشراف ب. أ. أوغوت، منشورات اليونيسكو، لبنان، 1997م.
-إبراهيم حركات، طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية، مجلة دعوة الحق، العدد269 ماي – أبريل، 1988 .
(على موقع: http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/6944 بتاريخ: 2016/11/15)
-إبراهيم طرخان، غانة في العصور، الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، العدد 13، 1967م.
-أحمد الأزمي، الإشعاع الصوفي المغربي في إفريقيا جنوب الصحراء خلال التاريخ الحديث والمعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، 2013م.
-أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي 1230-1430م، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1420هـ / 1999م.
-جوزيف كي زيربو، تاريخ إفريقيا السوداء، ترجمة يوسف شلب الشام، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1994م، القسم الثاني.
-دفيس ويانسينا، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر: قرون التكوين الخمسة، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، إشراف محمد الفاسي وإ هربك، منشورات اليونيسكو، بيروت، الطبعة الثانية، 1997م.
-زكري دراماني – إيسوفو، الإسلام كنظام اجتماعي في إفريقيا منذ القرن السابع الميلادي، المجلد الثالث، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، إشراف محمد الفاسي وإ هربك،، منشورات اليونيسكو، بيروت، الطبعة الثانية، 1997م.
-زوليخة بنرمضان، المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5و10هـ / 11و16م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1436هـ / 2015م.
-سمير أمين، الأمة العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م.
-شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر: طبعة جديدة ومنقحة، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، 1422هـ / 2002م.
-عبد العلي الودغيري، ملامح من التأثير المغربيّ في الحركة الإصلاحية للشيخ المجدّد عثمان بن فُودي،
(على موقع: http://machahid24.com/etudes/97811.html بتاريخ: 2015/09/01)
-عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 1421هـ / 2001م.
-عبد الله العروي، علاقات المغرب بإفريقيا: ملاحظات أولية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1997.
-عزيز بطران، الثورات الإسلامية في إفريقيا الغربية في القرن التاسع عشر، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد السادس، القرن التاسع عشر في إفريقيا حتى ثمانينياته، تحت إشراف ج.ف. آدى آجابي، منشورات اليونيسكو، لبنان، 1996م.
-كي زيربو، المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، إشراف ب. أ. أوغوت، منشورات اليونيسكو، باريس، 1983م.
-ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت.
-محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1402هـ / 1982م.
-محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1406هـ / 1985م.
-هاشم العلوي القاسمي، أصول الروابط التاريخية بين بلاد المغرب وغرب إفريقيا في العصور الوسطى: استحضار أم استشراف؟، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، عدد خاص بالعلاقات المغربية الإفريقية، 1409هـ / 1989م.
-هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1415هـ / 1995م.

المراجع الفرنسية:

Abitbol Michel. Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIe au début du XIXe siècle.. In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°30, 1980.

Alaoui AbdelAziz, Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XI ème – mileu du XIV ème S.), thèse du doctorat de 3ème cycle, Université de Bordeaux III, 1983, t1, p.67.

Cahen Claude, L'or du Soudan avant les Almoravides, mythe ou réalité ?. In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 66, n°242-243, 1er et 2e trimestres 1979.

Mauny Raymond, Tableau géographique de l'ouest africain ay moyen âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, IFAN, Dakar, 1961.

Nazarena Lanza. Liens et échanges entre le Maroc et l'Afrique Subsaharienne: Éléments pour une perspective historique, Karthala, Paris, 2011.